الرؤى العاشرة

ليلة زفاف

فاطمة عمارة

تعال نتحدث معًا دون كلمات..نملأ صخب أرواحنا بضوضاء قلوبنا..

فمن قال أن أحلى الكلام يقتصر على الكلمات..لا يسع الكون روحين التقيا فعشقا..فتعانقا..فانتشيا..فسما..

فاطمة عمارة

ليلة زفاف

"احذر مما تتمنى" عبارة طالما استهزأت بها قائلة:

"ما هو أسوأ ما سيحدث لي؟ فأنا لست بقيصر الذي تمنى الموت فجأة فمات في أقبح عملية اغتيال كوصف شكسبير لها".

وأصبح عندي رغبة مجنونة في تمني كل ما هو غريب، حتى تحققت المقولة وتحقق ما تمنيته وندمت بعدها.

أتذكر جيدًا تلك الليلة التي اجتمعت فيها مع أصدقاء الطفولة، وأعددنا جلسة في منزل إحدانا لمشاهدة فيلم عن رجل تمنى أن يعرف ما تفكر فيه النساء، وكم تغيرت حياته بعد ذلك، لا أعلم سببًا لانبهاري بالفكرة، وفكرت: ماذا يحدث لو أصبح الجميع يعرف ما يفكر به من حوله؟ ثم برقت عيناي بفكرة، لا ليس الجميع أنا فقط، ورفعت صوتي معلنة أمنيتي الجديدة " أتمني أن أقرأ أفكار من حولي".

وضحك الجميع، رددت إحداهن تلك العبارة التحذيرية التي تغيظني دائمًا.

أكملت سهرتي وتركت أصدقائي عائدة إلي منزلي سيرًا على الأقدام، أفكر في كيفية تحقيق أمنيتي، لتصدمني سيارة أثناء عبور

الطريق وأسقط مغشيًا عليَّ أفقت بعد مدة لا أعرف كم طالت لأسمع همسات حولي، اكتشفت بعدها أنها لم تكن سوى أفكار الممرضة الواقفة جواري بالمشفى، لم أصدق في بداية الأمر، وتكرر ذلك مع والدي وأصدقائي الزائرين، وكأن أبواب السماء كانت مفتوحة وتحققت أمنيتي، وها أنا اليَومَ أُكمِلُ عامًا بعد تحققها، قرأت أفكار الجميع في كل الأوقات، وكل المناسبات، حتى لازمني الصداع من كثرة الأصوات.

واليوم يكتمل العام بمناسبة جديدة لم تمر عليَّ سابقًا، حفل زفاف، وأشهد مراسمه من البداية في غرفة العروس، فأنا ابنة خالتها، نظرت إلى خالتي الواقفة بأعين دامعة وابتسامة تسع الكون، مُمسكة بغِلالة الزفاف كأنها مُنقذها، وبلا أي مجهود سمعت همس أفكارها، حُلم.. ولستِ أي حُلم، فأنتِ حُلمي أنا، قطعة مني، بل قطعة منا معًا، كأننا اتفقنا أن نمنحك أجزاء منا فتشبهينا معًا، إعلان صريح عن تتويج حبنا، ممسكة بالغلالة الرقيقة من التل الأبيض في حرص شديد لتضعها على رأس أميرتها كما تمنت دومًا، ترسم على شفتيها ابتسامة سعادة حقيقة، وتسبح عيناها في دموع فرح، ويُسافر عقلها مع ذكريات لم تُغادرها أبدًا.

واقع عاشته بحلوه ومُره، تتذكر جيدًا كيف استقبلت خبر

حملها بالأميرة الصغيرة بمنتهى الرعب، بعد فقدها المُتعدد لصغار لم يُكتب لهم الحياة، لتأتي الصغيرة وسط حالتها النفسية السيئة، وحرص شديد من حبيبها عليها، يخفي خوفه عنها، ويسعي لبث الطمأنينة في نفسها، وتسمعه يُناجي الله ليحفظها له، حتى وإن لم يكن لهما نصيب من الأبناء، تبكي في صمت وتدعو أن يُحافظ الله على جنينها الصغير.

حتى أتت البشارة أن مرحلة الخطر قد مرت بسلام، وأنهما في انتظار وصول الأميرة، رأت عيناه ترقصان فرحًا لمعرفته أن الجنين أنثى، قبَّل رأسها وهمس لها:

" خيركم من بكَّر بالأنثى" لتبكي داخل حضنه، وكأن السعادة تأبى أن تكون رفيقة دربها لتسوء الحالة، ويضطر الطبيب لإجراء ولادة عاجلة، يستودعها الله ويوصي الطبيب "هي عندي الأهم"، ولكن إرادة الله كانت أن تبقي الصغيرة مُقاتلة حتى النهاية، وتظل في حَضَّانة الأطفال شهرًا، بعيدًا عن أحضانهم، حتى سُمِح لها أن تضمها إلي صدرها، إيذانًا منه بقرب العودة.

أحاطتها بالرعاية الفائقة إلا أن مُقاتلتها دائمة التمرد، ترفض القيود ويُشجعها أبوها، وقد كان، فها هي أمامهما تضحك وتشاغب، تغمز لها بالمرآة في شقاوة اعتاداها، هي تعلم مكانتها

لديها لترد لها الغمزة بقبلة في الهواء، وحلمها على وشك أن يتحقق، أن تُلبِس أميرتها بنفسها طرحة الزفاف، وتُسلمها لوالدها بيدها، وعند هذا الخاطر لمحته هناك يقف في زاوية مُنعزلة، ابتسمت وهي تعرف ما يدور بخاطره.

تتبعت نظرتها لأراه واقفًا في زاوية الغرفة، حيث تقل الإضاءة في محاولة منه للاختباء، غافلًا عن مُراقبتي وإنصاتي لأفكاره، يُراقب ضحكتها وعيونها، ما زالت تلف خُصلة شعرها على طرف إصبعها عندما تتوتر، وها هي تفعلها الآن، غير عابئة بتحذيرات مُصففة شعرها لإفساد ما انتهت منه، إنها هي كما حملتها أول مرة بين يدي، قبَّلت رأسها وهمست في أذنها "مرحبًا أميرتي"، ومن يومها كنت أسيرها، أأتمر لأمرها أنفذه صاغرًا ودون تردد، كم تحايلت على الجميع لأسرق ساعات نقضيها معًا وحدنا، أضع لها طلاء الأظافر، أُعد طعامها، أُصفف شعرها، نُلون معًا.

ثم كانت الحنان الخالص، تحتضن رأسي المُتعب، وتضعه على حجرها الصغير، وتتغلل أصابعها "المُنمنمة" داخل شعري، وتهمس كأنها تُهدهدني وهي تُغني أُغنياتها الطفولية، كم من الأسرار حكيتِهَا لي في رحلتنا اليومية! وكم من الحكايات حكيتُها لكِ! لتُعلني لي بنظرة فخر تملأ عينيك:

"أنت فارس أحلامي، أنت أميري ولا أحد سيكون سواك".

وكعادتكِ أصررتِ وأنا أطعتكِ، فستان للأميرة وتاج، وكالراعي المُطيع لأميرته انحنيت أُقبل يدك، لم أحتمل يومًا دموعك، كانت تُمزقني، جلستِ بجواري تشُكين وتبكين كم جرَحَك تصرف صديقتك! وأخذت أضمد جراحك، وأمسح دموعك، حتى ارتميتِ ككل مرة على صدري تحتمين بي، وأحتويكِ وأطبطب على ظهركِ حتى تغفين في هدوء، وآه من اليوم حبيبتي، أراكِ أميرة جميلة تختطف الأنظار، ولكنكِ تبُعدين عني، وأنا موافق بل في غاية السرور، وفي خضم أفكاره التفتت الأميرة الصغيرة لتصرخ " أبي حبيبي" وتقفز تاركة كل من حولها، تجري إلى ملاذها الدائم داخل أحضانه، وتهمس في أذنه:

"فارسي النبيل، حبيبي الأول والوحيد، لِمَ أرى الدموع في عينيكِ؟ يُمكنني إلغاء كل شيء بإشارة منكِ".

يبتسم فارس قلبها وهو يزيد من احتضانها "لا أميرتي الصغيرة، فقط تذكرت أيامنا معًا، وسعادة منحتيني إياها قبل أن تُشاركيني بها، تأكدي أن حُضني هذا محجوز لأجلكِ في أي وقت" وطبع قُبلة على جبينها.

تداخلت همسات أفكارها الناعمة مع أفكار أبيها داخل

رأسي، دومًا كما عهدتها رقيقة، خطفتُ نظرة سريعة لأجدها تجلس مُستسلمة لمُصففة الشعر، شاردة فيما حدث منذ يومين، لا تعرف كيف واتتها الجرأة لتُقدِم على ما فعلت، ولكن قلبها تَزَعَّم المسير وكان القرار صائبًا، فبعد أن أخذت مجلسها على طاولة عقد القران، وأثناء إلقاء المأذون خُطبته الصغيرة المُعتادة في مثل هذه الأحوال، عن أهمية الزواج وسنته، وجدت نفسها تعتزم المواجهة، ووضع كل مخاوفها على المائدة، فالآن تتحدث أو تصمت للأبد، هل تفعلها أمام الجميع أم تطلب الانفراد به؟

معركة داخل عقلها، حتى سمعت صوت المأذون يطلب من خطيبها وأبيها أن يمسكا يَدَي بعضهما، نظرت إليه وبصوت أقرب للهمس ولكنه واضح: "أيمكنني الحديث يا مولانا؟"

الصمت حلَّ على الجميع كأن على الرؤوس الطير، ابتلع عريسها ريقه في سرعة وهو يسألها ماذا هناك؟ قطع محاولته المأذون وهو يقول لها: طبعًا ابنتي لكِ كل الحق.

ظانًا منه أنها تراجعت عن الموافقة أو كانت مجبرة، تناولت مكبر الصوت في يديها وبدأت الحديث:

"شكرًا لكل أهلي وأصدقائي الحضور اليوم، قد يستغرب البعض ما أقوم به الآن، ولكنكم شهود عقدي".

همهمات متناقلة بين الحضور وصمت مُخيم بين جالسي المائدة الرئيسية جوارها، لتُكمل بعد نظرة سريعة في الجالسين أمامها، تأكدت من موافقتهم على الشهادة لتكمل كلامها:

" الكل يعرف أنني مدللة أبي، أميرته الصغيرة والوحيدة، عشت عمري بين يديه مُكرمة، إن حدث وسقطت دمعة من عيني تسبق يده يدي ليمسحها، احتوى جنوني، وعاش معي لحظات فرحي وجروح دروس الحياة، كم على صدره بكيت وكم نمت وكم من الأسرار له أسررت! كان ناصحي الأول، والدافع لأتقدم وأنجح، شجعني على كل حلم حلمت به، هو مَلِكُ قلبي الأول، وأنا أميرته.

ثم نظرت إلي أبيها الذي لمعت الدموع في عينيه يكبتها بشق الأنفس: هو حبيبي وسيظل حبيبي.

لتنتقل نظراتها إلي خطيبها وهي تسأل:

فهل أنت على استعداد لأن تنتقل الأميرة من بيت أبيها لتصبح ملكة في بيتك؟ تُكرمها وترفعها إلي جوارك، تساندها كما تساندك، تسعد بنجاحها، لا تحرمها من أحلامها، تتقبل لحظات جنونها، وتتمكن من احتوائها، وتكون لها الحامي، ويسعها صدرك إن احتاجت يومًا صدرًا تبكي عليه؟"

توقفت تلتقت أنفاسها لتقع عيناها على دموع أبيها التي

خرجت من معقلها، لم تستطع أن تكمل سؤالها لتنتبه على يد تمسك يدها لتجده ينظر بكل صدق في عينيها ويرد على سؤالها:

" أعدكِ أن أكون كما تتمنين، وتجدي عندي محبة زرعها الله لكِ في قلبي، مليكتي أنتِ تاج رأسي، لكِ عندي المودة والاحترام، أمانكِ عند احتياجك، احتويكِ، في صدري تبكين وتضحكين وتحكين ما شئتِ من الأسرار، ولكن لن أستطيع أبدًا أن أكون مثله، فهل تقبلين بأحد رعايا أبيك أن يحاول أن يتشبه به لتكوني أنت الملكة على قلبه وفي بيته؟"

ابتسامة شقت طريقها بين دموع الفرح، لتهز رأسها بالموافقة وليصفق الجميع، وتنطلق الزغاريد، ويبدأ المأذون في عقد القران، انتبهت من رحلة ذكرياتها القريبة على صوت المصففة تنهرها من لف خصلات شعرها، التي انتهت من ضبطها لأكثر من مرة، لتقع عيناها في المرآة على أبيها يقف في زاوية الغرفة، حيث لا يراه أحد فصرخت "أبي حبيبي"

ولا يجوز أن تنتهي ليلتي المملؤة بمشاعر صادقة دون أن أنتبه لفارس الأميرة، حاولت أن أضع كل تركيزي حتى أنتقي أفكاره من وسط الهمسات المتداخلة للمدعوين، حتى نجحت محاولتي،

أقف في الانتظار، أترقب دخول أميرتي، لا أعرف أيهما أعلى دقات قلبي أم نغمات الموسيقى التي تُنبئ بقرب وصولها، أتذكر جرأتها يوم عقد القران، كما هي دومًا مُقاتلة لا تهاب أحدًا، تُحب أن تعرف حدودها، ما لها وما عليها ولهذا عشقتها، رقيقة وقوية في الوقت ذاته، أميرة بحق، خرجت من إحدي القصص القديمة.

ها هي تخطو أولى الخطوات نحوي، لا أصدق عيني، هل هي ملاك تتأبط يد أبيها برقة؟ أم غلالة دموعي هي ما جعلت لها هالة من النور؟ نظرة عينيها والفرح يملؤها، وسحر ضحكتها أَسَرَاني، لا أرى أحدًا حولنا، ولا أسمع غير همسها وهي تحرك شفتيها " أحبك"، حُلمي على بعد ثلاث خطوات، خطوتين، خطوة واحد، هزمتني دموعي، وضاعت حروفي، أفقت على همس والدها في أذني، ولا أعرف كيف احتواني: "الآن فقط اطمأننت عليها."

ناولني يدها، قبلتها وقبلت جبينها وكلي رغبة أن أخطفها وأهرب بها، غلبتني الدموع فرحًا، فلأول مرة أجد أن لأمنيتي معنى.

تمت بحمد الله

فاطمة عمارة

بـدأت أكتـب خربـشات أو خـواطر إن جاز تسميتها بذلك، اهتم والدي منذ الصغر بهذا الجانب، فحرِص أن تحتوي مكتبتنا المنزلية عـلى كتـب مـشاهير الكُتـاب، مثـل: نجيـب محفـوظ، وثـروت أباظـة، ويوسـف أدريـس، والــسباعي، وغــيرهم، ممــا ســاعدني عــلى الاختلاط بمختلف الثقافات والعادات.

مولدي ونشأتي في مدينة القاهرة، وعلى الرغم من حلمي أن أكون مهندسة حاسب آلي، إلا أن القدر رسم لي مستقبلًا مخالفًا، فتخرجت في كلية الآداب لأعمل بعدها في مجال الصحافة بجريدة الأهرام.

تأخذ كتاباتي الشكل الصحفي، وأبعُدُ قليلًا عن موهبتي، وظلَّ ذلك حتى العام الماضي، وبتشجيع من بعض الصديقات كتبت أول قصة قصيرة بعنوان "كَبِّري عقلك"، لتنشر في أحدى المجموعات الأدبية " روائع الروايات"، ليتلوها بعد ذلك "رسائل على ورق الورد" ثم "نغمة شاذة" و "دليل استخدام لموقع جود ريدز".

قد يكون اسمي " فاطمة عمارة " مرَّ عليك من قبل وقد لا يكون، ولكن بين يدك أول قصة ورقية منشورة أتمني ألا تكون الأخيرة.

للتواصل معي عبر حساب الفيس بوك:

https://www.facebook.com/fatma.emara.1